أ. جورج شكّور
شاعر لبناني معاصر

من أدب التقريب

لو كان للقلب الوفي

مَلْحمةُ الحُسَين (ع)

علـــى الضَّـــمير دَمٌ كالـــنَّار مَـــوَّارُ
إنْ يُذْبَـــحِ الحَـــقُّ، فالذُّبَّـــاحُ كُفَّـــارُ
دَمُ «الحُسَـــينِ» سَـــخيٌّ فـــي شَـــهادتِه
مـــا ضَـــاعَ هَـــدْراً، بـــه للهَـــدْي أنـــوارُ
وللشَّـــهادة طَعْـــمٌ لـــم يَذُقْـــهُ سِـــوَى
الشُّـــمِّ الأُلَـــى أقْسَـــمُوا، إنْ يُظْلَمُـــوا ثـــارُوا
قـــال الأئمَّـــةُ، وائتمَّـــتْ بِهِـــمْ أُمَـــمٌ
قـــال الخُصُـــومُ، وصِـــدْقُ القـــول إصْـــرارُ:

أمَـــا «الحُســـينُ» رَبيـــبٌ للنَّبـــيِّ، أمَـــا

نَمـــا لـــهُ فـــي فـــؤادِ الجَـــدِّ إيـــثارُ؟

سَـــمَّاهُ رَيحانـــةَ الشُّـــبَّانِ، حالِـــيةً

علـــى الجِـــنان، شَـــذا الـــرَّيحانِ مِعْطـــارُ

وقـــبَّلَ الـــثَّغْرَ يَحْـــبُو رُوحَـــهُ نَســـماً

كَمـــا تَفـــاوَحُ فـــي الأسْـــحار أزْهـــارُ

أمـــا «الحُســـينُ» وَرِيـــثٌ «للعَلِـــيِّ» فَـــتَى

الفِتْـــيانِ، مَـــنْ نَهْجُـــهُ فـــي السِّـــرِّ أسْـــرارُ؟

أكْـــبَرتُ عـــن أذمُعِـــي يَـــوْمَ الحُسَـــينِ،

ولِلشَّـــهادةِ الـــبِكْرِ أعـــراسٌ وإكـــبارُ

فـــي ثَوبـــه احتشـــدتْ دُنـــيا، وقـــد نَهَضـــتْ

أحـــلامُ أمَّـــتِه إذْ ضَـــجَّ إنـــذارُ

هـــذا «يَـــزيدُ» دَعِـــيُّ الحُكْـــمِ يُـــنْذِرُهُ

وهـــل يُـــبايَعُ بالأحكـــام فُجَّـــارُ؟!

رَدَّ «الحُسَـــينُ» بـــ «لا» كالسَّـــيفِ صـــارمةٍ

وسَـــيِّدُ الحَـــقِّ بِـــ «الـــلاَّءات» زَاَرُ

سَـــمِعْتُ جَـــدِّي رَسُـــولَ اللهِ حَـــرَّمَها

فـــلا خِلافَـــةَ فـــي «سُـــفْيانَ» تُشْـــتارُ

المَـــبدأُ الحُـــرُّ سِـــرٌّ لا أدنِّسُـــهُ

مُقَـــدَّسٌ، وحُمـــاةُ السِّـــرِّ أحْـــرارُ

حـارَ «الوَلِـيدُ» ، فمـا غَـدْرُ الحُسـينِ سِـوَى

غَـــدْرٍ بـــرأسٍ، بـــه يَسْـــتَكْبِرُ الغـــارُ

خَسِـــرْتُ دِينـــي وجَـــنَّاتِ النَّعـــيمِ إذا

خَسِـــرْتُهُ، مـــا أنـــا، واللهِ، جَـــزَّارُ

إنْ لـــم يُـــبايِعْ، فـــلا إثْـــمٌ، ولا جُـــرُمٌ

ولا جُـــناحَ عَلـــيهِ، الحُـــرُّ جَـــبَّارُ

ســـارَ «الحُســـين» إلـــى تُـــرْبِ النَّبـــيِّ تُقـــىً

مُسْـــتَلْهِماً سِـــرَّهُ، للقَـــبْرِ إسْـــرارُ

صَـــلَّى مَلِـــيّاً، فـــأغْفَى، راوَدَتْـــه رُوىً

أنْ جَـدُّه قـال، مافـي القـول إضْـمارُ:

إنّـــي أراكَ ذَبـــيحَ «الطَّـــفِّ»، مُـــنْطَرِحاً

فـــي «كَـــرْبَلاءَ»، ومـــنكَ الـــدَّمُّ فَـــوَّارُ

ظَمْـــآنَ، وَيْلَـــكَ، لا تُسْـــقَى، وهُـــمْ بِهِـــمُ

إلـــى شَـــفاعَتيَ السَّـــمْحاءِ أوْطـــارُ

يَـــرْجُونها؟ لا، وربِّـــي لـــن أجُـــودَ بهـــا

يـــومَ القِـــيامةِ، لا، لـــم يَـــنْجُ أشْـــرارُ

أقْـدِمْ، «حُسَـينُ» ، حَبيبـي، أهلُـكَ اشـتعلُوا

شـــوقاً إلـــيكَ، غَـــدَا للشَّـــوق أبصـــارُ

مَـــــدارِجُ الجَـــــنَّة العُلـــــيا تَوَزَّعُهـــــا

رُوحُ الشّـــــهيد، وأبـــــرارُ وأطْهـــــارُ

قـال «الحُسَـينُ»: «مَشَـيناها خُطىً كُتِبَـتْ»

إلـــى الجِهـــاد، وإلاَّ هَدَّنـــا العـــارُ

نَحْـــنُ النُّســـورُ، سَـــماءُ اللهِ مَسْـــرَحُنا

أرواحُـــنا، فَـــوْقُ، إنْ ضـاقت بـنا الـدَّارُ

مَضَـــى إلـــى مَكَّـــة الـــبَطْحاءِ مُعْـــتَزِماً

لـــم يَثْـــنِهِ ناصِـــحٌ، لـــم تُجْـــدِ أعْـــذارُ

«لا خارِجـــاً أشِـــراً، لا مُفْسِـــداً بَطِـــراً»

بـــل هَـــمُّ أمَّـــتِه فـــي الـــبالِ دَوَّارُ

مِـــنَ العِـــراق أتْـــتْهُ الكُتْـــبُ، قائلـــةً:

إنَّـــا فِـــداكَ، فـــأقْدِمْ نحـــن أنصـــارُ

سَـــرَى «الحُســـين» بِرَكْـــب لا يُماثِلُـــهُ

رَكْـبٌ، فكيف الْتَقَتْ شَمْسٌ وأقمـارُ؟!

وظَـــلَّ يَسْـــتَطْلِعُ الأخْـــبارَ مُبْـــتهجاً

حَـــتَّى أتَـــتْهُ بِمـــا لـــم يَهْـــوَ أخـــبارُ:

قلوبُهُـــمْ مَعَـــهُ فـــي السِّـــرِّ خافِقـــةٌ

علـــيهِ أسْـــيافُهُمْ فـــي الجَهْـــرِ جُهَّـــارُ

دَرَى «يَـــزِيدُ» بمـــا دارَ الـــزَّمان بـــهِ

فَـــدارَ مـــنه علـــى الـــثُّوَّار سَمْســـارُ

هـــــذا يُعلِّلـــــهُ بالمُغْـــــرِياتِ، وذا

بالمُرْهِـــباتِ، وجَـــيْشُ الجَـــوْرِ جَـــرَّارُ

تُشْـــرَى شُـــعوبٌ إذا جاعـــت، وإن جَزِعَـــتْ

فـــالظُّلْمُ مُرْتَهَـــبٌ، والمـــالُ غَـــرَّارُ

لكـــنَّما شُـــهَداءُ الحَـــقِّ مِـــنْ كِـــبَرٍ

والشَّـــامِخُ الحُـــرُّ لا يُغْـــرِيهِ دِيـــنارُ

يـــا «كَـــرْبَلاءُ»، أأنـــت الكَـــرْبُ مُبْتَلِـــياً

وأنـــتِ جُـــرْحٌ علـــى الأيَّـــامِ نَغَّـــارُ؟

لا،لا، وثـــيقةُ حَـــقٍّ أنـــتِ شـــاهِدةٌ

أنْ فـــي الخَلـــيقةِ أشْـــرارٌ وأخـــيارُ

وجَوْلـــةُ الـــبُطْل، إنْ طالـــت، لهـــا أجَـــلٌ

والحـــقُّ، جَوْلَـــتُه فـــي الدَّهْـــرِ أذهـــارُ

كُـــلُّ الـــزَّعاماتِ، إنْ شِـــيدَتْ علـــى ظُلَـــمٍ

كالـــبُطْلِ وَلَّـــتْ، وصَـــرْحُ الظُلْـــمِ يَـــنْهارُ

وَوَحْدَهـــا نَسَـــماتُ الـــرُّوحِ باقـــيةٌ

علـــى الـــزَّمانِ، كـــأنَّ العُمْـــرَ أعْمـــارُ

يـــا «كَـــرْبَلاءُ»، لَدَيـــكِ الخُسْـــرُ مُنْتَصِـــرٌ

والنَّصْـــرُ مُنْكَسِـــرٌ، والعَـــدْلُ مِعْـــيارُ

وفـــيكِ قَـــبْرٌ غَـــدَتْ تَحْلُـــو مَحَجَّـــتُهُ

يَهْفُـــو إلـــيه مـــن الأقطـــار زُوَّارُ

فأيـــنَ قـــبْرُ «يَـــزِيدٍ»، مَـــنْ يُلِـــمُّ بـــه

غـــيرُ الـــتُّرابِ، وفَـــوقَ الـــتُّرْب أحْجـــارُ؟

يَـــومَ «الحُســـينِ» بـــكَ الأيَّـــام شـــامخةٌ

وقـــد تَشـــابَهُ فـــي الـــتَّاريخِ أذوارُ

ذكَّرتَنـــي كـــأسَ سُـــمٍّ راحَ يَجْـــرَعُها

«سُـقْراطُ» حُـرّاً، ولـم تأسِـره أفكـارُ

ذكَّرتَنـــي رأسَ «يُوحـــنَّا» بـــه حَلَمـــتْ

إحْـــدَى العَواهِـــرِ، والظَّـــلاَّمُ عُهَّـــارُ

ذكِّـــرْ تَنِـــيهِ «يَسُـــوعَ» الحَـــقّ، مُـــرْتَفِعاً

علـى الصَّـليبِ، وفـي كَفَّـيهِ مِسْـمارُ

ظمـــآنَ قـــبْلَكَ لا يُسْـــقَى، وإنْ كَـــرُموا

آنـــاً علـــيه، فَكَـــمْ فـــي الخَـــلِّ إمْـــرارُ!

إنَّ العقـــائدَ مـــا هانـــت، ومـــا وهَنَـــتْ

وإنْ أحـــاطَ بهـــا خَطْـــبٌ وأخْطـــارُ

زَيْـــنَ الشَّـــباب، لَكَـــمْ تهـــواكَ أشْـــعارُ

وفـــيكَ تَخْلُـــو أحاديـــثٌ وأســـمارُ!

فـــي «كَـــرْبلاءَ» سَـــكَبْتَ العُمْـــرَ مَلْحمـــةً

بـــالدَّمِّ خُطَّـــتْ، وخُطَّـــتْ عـــنكَ أســـفارُ

رامَخْـــتَهُمْ، وصَـــهِيلُ الخَـــيْلِ حَمْحَمَـــةٌ

ســـايَفْتَهُمْ، وصَـــلِيلُ السَّـــيفِ بَـــتَّارُ

ضَـــجَّت لِهيبـــتكَ الصَّـــحراءُ مُجْفِلَـــةً

كأنَّمـــا هَـــبَّ فـــي الصَّـــحراء إعْصـــارُ

لكـــنْ هَوَيْـــتَ، ومـــا فـــي الأفُـــقِ كَوْكَـــبةٌ

إلاَّ علـــيكَ بَكَـــتْ، والدَّمْـــعُ مِـــدْرارُ

لـــم تُكْمِـــلِ الشَّـــوطَ لكـــنْ ظَـــلَّ مُلْتَفِـــتاً

إلـــى مِـــثالك فـــي الفُرســـان مِضْـــمارُ

قـــد جُـــذَّ رأسُـــك بالأســـياف، واقْتُطِعـــتْ

رُؤوسُ قَوْمِـــكَ، قَلْـــبُ الحِقْـــدِ قَهَّـــارُ

يـــا وَيْحَهُـــنَّ علـــى الأرْمـــاحِ، دامـــيةً

تَخالُهـــا الـــنَّخْلَ، لاحـــت مـــنه أثمْـــارُ

والـــــنَّائحات بِهِـــــنَّ الآهُ لاهِـــــبةٌ

خُدودُهُـــنَّ، علـــيها الدَّمْـــعُ حَفَّـــارُ

رَقَّـــتْ لَهُـــنَّ دُروبُ البـــيدِ، باكـــيةً

ونَكَّسَـــتْ رأسَـــها فـــي الـــدَّوِّ أذيـــارُ

حـــتَّى بَلَغْـــنَ بَـــلاطَ البَغْـــيِ، وانكشَـــفتْ

عـــنَ غَـــيٍّ غاصِـــبِهِ الجَـــزَّارِ اسْـــتارُ

رأسُ «الحُسَـــينِ» بـــه تَلْهُـــو بِمِخْصَـــرةٍ

كَفَّـــا «يَـــزيدَ» كـــأنْ لـــم يَشْـــفِهِ ثـــارُ

غَبْـــنَ الـــبُطولة، آهٍ، زينـــبٌ هَتَفَـــتْ

تَرْمـــي الكَـــلامَ كمـــا تَصْـــطَكُّ أشْـــفارُ

أو كالـــرِّماح، وقـــد حُـــرَّت بهـــا حُمَـــمٌ

أو كالسِّـــهامِ إذا مـــا شُـــدَّ أوْتـــارُ

تَـــرْنُو لِـــرأسِ أخـــيها، الطَّـــرْفُ مُنْكَسِـــرٌ

إلـــى «يَـــزِيدَ»، بهـــا للطَّـــرْفِ أظفـــارُ

وَلْهَـــى، وتَهْـــتِفُ، مـــا للـــبُطْلِ مجـــترئاً

قُوتِلْـــتَ، بُطْـــلُ، ومـــا أقســـاكِ، أقْـــدارُ!

مَهْـــلاً، «يَـــزيدُ» ولا تَغْـــرُرْكَ مَـــنزِلةٌ

كُـــلُّ الطُّغـــاةِ، إذا عُـــدُّوا، لأصـــفارُ

إلـــى خِطـــابكَ قـــد ألْجئـــتُ مُـــرْغمةً

صَـــغارُ قَـــدْرِكَ لـــم يُكْـــبِرْهُ إنْكـــارُ

أسْـــتَعظِمُ الأمـــرَ أن آتـــي مُقَـــرِّعةً:

قـــد رُمْـــتَهُمْ مَغْـــنَماً، مَـــنْ مَغْـــرَماً صـــاروا

تَكِـــيدُ كَـــيْدَكَ، تَسْـــعَى السَّـــعْيَ مُزْدَهِـــياً

وحَـــوْلَ عُـــنْقِكَ كالحَـــيَّات أوْزارُ

تَشْـــرِي الضَّـــمائرَ، لكـــن ظَـــلَّ مُذَّكِـــراً

لا تَنْسَـــها، مـــا لأهْـــلِ البَيْـــت أسْـــعارُ

لا لـــن تُمِيـــتَ لـــنا وَخْـــياً ولا نَسَـــباً

بـــاقٍ لـــنا فـــي قُلـــوبِ الحُـــبِّ تَذْكـــارُ

نَهُـــزُّ عَرْشَـــكَ فـــي الجُلّـــى نُزَلْـــزِلُهُ

لـــنا النَّعِـــيم، لـــكَ الويـــلاتُ والـــنَّارُ

يـــومَ «الحُسَـــينِ» هُـــمُ الأحفـــادُ أنْهـــارُ

فـــي العالَمِيـــنَ، لَهُـــمْ دَفْـــقٌ وتَـــيَّارُ

مُـــذْ ضِـــيمَ لُبـــنانُ، واغْـــتَرَّ الغُـــزاةُ بـــه

كـــانوا الفِـــداءَ، ورَدَّ الأرضَ ثُـــوَّارُ

ورَدَّدُوا قَوْلـــةً، والدَّهْـــرُ رَدَّدَهـــا:

مـــا ضـــاعَ حَـــقٌّ بـــه صَـــكٌّ وإقْـــرارُ

«القُـــدْسُ» عاصـــمةٌ فـــي الأرضِ قائمـــةٌ

وفـــي السَّـــماء لهـــا بالـــرُّوحِ إعمـــارُ

جورج شكّور

بيروت في ٢٤ آذار ٢٠٠٢